

رأيك الخالص هو نواة الرأي العام

للاستاذ عريان يوسف سعد

قال لي صديق "لقد أصبت بكلمتك التي كتبتها عن الهجرة الى شمال الدلتا حلا لمشكلة ازدحام جنوب الدلتا واقفار شمالها." ثم أفاض في وصفه لتلك المشكلة ولكنني قطعت عليه الحديث قائلا :

"لم لا تكتب ما نقوله وترمل كلمتك لمجلة الشؤون الاجتماعية؟" انك إن فعلت فقد سجلت رأيك الخالص ولو فعل ذلك كل من قرأ تلك الكلمة لوضع لتحرير المجلة أن كلمتي لم تعبر عن رأي كاتبها وحده وإنما هي صدى للرأي العام فيكون لها قيمة ويكون لها أثر، فالرأي الذي يبل به كاتب واحد لا يعدو أن يكون رأيا خاصا ولكن لو اتضح أن ذلك الرأي ليس رأي الكاتب وحده ، لكان لكلمته شأن آخر .

هذه الكلمة كتبها رجل واحد رأيه مهما كان صائبا لا وزن له الا مثل ما للرأي الواحد من وزن يختلف باختلاف ما لصاحبه من مركز أدبي أو اجتماعي، ولكنه على كل حال رأى فرد لا أكثر ولا أقل .

ولكن لو نلقت المجلة من كل من رأى فيه حلا لمشكلة اجتماعية كلمة تؤيده وأصبح لدى المجلة من تلك الكلمات مجموعة قيمة تدل على أن كثرة القراء رأيت ذلك الرأي لما أصبح ذلك المشروع الذي ربيت اليه رأى فرد بل لأصبح مشروعا قد يحدد من يضعه موضع التنفيذ .

كم من فكرة صائبة أدلى بها صاحبها الى جريدة أو مجلة لم ترح الورق الذي سطرت عليه ولم تعد حيز السطور التي حماها الى الرأي العام رغم إيمان الرأي العام بأنها فكرة صائبة تحل مشكلا من مشاكلنا العويصة .

هذا الركود الذي يتصيب الأفكار الصائبة التي يتعب الكتاب في تحليلها في مقالاتهم سببه أن القراء لا يعنون بتسجيل آرائهم الخاصة في تلك الكلمات التي يقرأونها ويؤمنون بما فيها من مقترحات فيبقى الرأي العام هيبول كالندى قبل خلقها . موجودة غير موجودة فمناصرها كلها متوافرة ولكنها لم تشكل ولم تأخذ صفة الأشياء الموجودة .

نعم الرأي العام رغم وجوده في مصر لا يحس أحد بوجوده ورغم قوته لا يشعر أحد بهذه القوة لأن الآراء الخاصة التي تكوّن بها لم تأخذ اتجاهها تندفع فيه ولم تتحد في ذلك الاتجاه حتى تؤثر فيما حولها إنما هي متناثرة مبعثرة كقطرات المطر التي لا تتجمع في جدول تسير فيه ماء وإنما تبقى حيث هي حتى تنبخر أو تشرّب الزوال .

كذلك الآراء الخاصة في مشروع أو فكرة إن بقيت في رءوس أصحابها أو امتدت إلى اللسان فعبّر عنها أصحابها لأصدقائهم وفي محيطهم . واكتفوا بذلك لم يكن لها رغم كثرتها أثر ورغم وجودها وجود حتى ينساها أصحابها ويتلغها الزمن كما تتبخر قطرات المطر التي تبقى منعزلة متفرقة فتجف ولا يشعر بوجودها أحد .

الرأى الخاص الذى تراه في فكرة تقرأ عنها في مجلة وتحفظ به لنفسك أو تشرحه لاصديقك جزء من الرأى العام أو ذرة من ذراته .

ولكن إذا لم تتجمع الأجزاء فلا وجود للكل وإذا لم تتماسك الذرات فلا وجود لما قد يتكون منها لو تجمعت ولو أرسلته إلى حيث يجب أن يرسل إلى صاحب الفكرة أو إلى الذى نشرها وفعل كل من رأى رأيك ففعله وأرسل رأيه إذن لتجمع من الآراء الخاصة ما يقال له الرأى العام وهو ما يحترمه المجتمع ويخضع له الحكام والزعماء والساسة .

أترى الكهرباء وقوتها التي غمرت العالم وسمت بالانسانية وسلطت الانسان على المكان والزمان فأصبحت الدنيا كلها مسيرة ساءة للآراء والأفكار ينقلها البرق وأصبحت الدنيا كلها مسيرة يوم وبعض يوم لمن يريد أن يطوف بها ، هذه الكهرباء كانت موجودة أيام كان قل الرسالة يستغرق أعواما وأيام كانت الرحلة إلى قطر مجاور تستغرق شهورا وأيام كان الطواف حول العالم مستحيلا ، نعم كانت الكهرباء موجودة أيام كان العالم هادئا ساكنا مظلما متقطع الأوصال .

كانت الكهرباء موجودة ولكن ذراتها كانت مبعثرة في الفضاء كامنة في معادنها فلم يظهر لها أثر فلما عرفت وجمعت نشأ تيارها فاستخدمه الانسان في أغراضه فإذا هي نور وثار وتدرج في ذلك الاستخدام من التلفون والتلغراف إلى الإذاعة اللاسلكية والتلغراف اللاسلكى ولا يزال التقدم يضطرد .

هذا مثل أسوقه لقوة الذرات التي تتجمع وتصبح قوة جارفة خارقة للعادة تحدث المعجزات .

ورأيك الخاص الذى تهمله ولا تبديه لمن يعنيه أمره له خطره لو أنه اتحد مع الآراء الخاصة التي يعملها أصحابها كما تهمل أنت رأيك هو ذرة الرأى العام .

رأيك الخاص في فكرة صائبة لو احتفظت به لنفسك استصغارا لشأنه إذ تقول لنفسك فكرة صائبة وتنصرف لعملك أو للهوك وتسليك ، رأيك الخاص هذا لو اعتنيت به وأرسلته لصاحب الفكرة أو ناشرها وتجمعت معه آراء القراء جميعا لما تركت الفكرة الصائبة تموت أو تنسى ، بل لهذا الرأى العام وأرسلها قوية تندفع بقوة رغم كل معترض ، ومن ذا الذى يستطيع أن يعترض الرأى العام وهو ذلك السلاح القوى الذى يغلب زعميا على زعيم ويسلط حزبا على سائر الأحزاب ؟

رأيتك الخاص هو ذرة الكهرباء المدفونة حية في معدنها لا قيمة لها ولكن يوم يجمع العلم شملها على مثيلاتها من الذرات تتحول تيارا يضيء ويحرق ويتكلم ويأتى بالعجب العجيب .

أقد عاشت ذرة الكهرباء أحقادا من الزمن لا أثر لها حتى تجتمع مع غيرها فتقاتل العالم من حالة البداوة إلى ما نحن فيه من حضارة فهل يليق بعد هذا أن تحمل ذرة من نوع أقوى من ذرات الكهرباء تجمعها مع مثيلاتها يخلق تيارا أقوى من تيار الكهرباء ، هو تيار الرأي العام !!

إن ما تنفقه من دقائق في كتابة سطر واحد تؤيد فيه فكرة أعجبتك ، وأن ملاليم قليلة تدفعها ثمن طابع البريد الذى ترسل به ذلك السطر الساحر الى الكاتب أو الناشر ليس وقتا ضائعا ولا مالا ضائعا ، نعم هي دقائق وملاليم ولكن آلاف الرسائل التى تصل مع رسالتك ستكون القوة الدافعة التى تحقق تلك الفكرة التى استموت بها لأنها ستكون الرأي العام ، ذلك التيار الجارف الذى يعمل الزعماء على استرضائه ليظل ناصرا لهم فيحتفظون بنفوذهم ، تلك الدقائق وتلك الملاليم تفوق الثروة وتفوق النفوذ إذا أنفقها أصحاب الآراء الخاصة فى التعبير عن آرائهم وفى تكوين الرأي العام .

انى أظن بل أعتقد أن اليوم الذى تتلقى فيه الصحف والمجلات والكتاب سيلان الآراء الخاصة فيما ينشر ، هو اليوم الذى يصبح فيه الرأي العام فى مصر قوة جارفة يحسب حسابها أصحاب الصحف والمجلات ويعترون بها ويحسب حسابها الكتاب ويعملون على استرضائها وتوجه الحكام والزعماء الاتجاه الذى يحبه أفراد الشعب ويرتضونه .

أين نحن من هذا اليوم وأين رأينا العام من هذه القوة التى للرأي العام .
الحق أننا بعيدون عنه فليس فى مصر رأى عام بالوصف الذى وصفته لك ولا اعتبار للرأي العام لأنه لا قوة له ، لأنه غير متكون رغم توافر عناصره لأنه متحلل غير متماسك الأجزاء .

فى أمريكا رأى عام يحترمه ويحسب حسابها أصحاب الصحف رغم قوتهم وثروتهم وذبوع صحفهم لأنهم يعلمون أن قوتهم وثروتهم وذبوع صحفهم كلها مستمدة من الرأي العام الذى يصلهم كل يوم فى سيل جارف من الرسائل .

هناك كتاب إذا كتب الواحد منهم دفعت له الصحيفة التى تنظر بكتابته أجرا لانتصوره ، هناك كتاب ثمن الكلمة الواحدة مما يكتبون ريال ، وهنا ١٠٠ كلمة لأشهر كاتب لا يحصل منها على ربع ريال ، ذلك ليس اسرافا من أصحاب الصحف ولكن أصحاب الصحف يعلمون أن الرأي العام يتبع كتابة ذلك الكاتب فالصحيفة التى تنشر كتابته تصل الى كل يد وهذا ما يطلبه صاحب الصحيفة .

هناك يكتب القراء للكتاب فيعلم أصحاب الصحف أى الكتاب أحب الى الرأى العام فينثرون كتابته ويدفعون لها ثمنا باهظا ولا يجسرون على حجبه عن الرأى العام ولا يملكون أن يقصوه عنهم ولو أرادوا .

أما هنا فقد يحب القراء كتابة كاتب ناشئ ويتبعونها فاذا بها تخفى واذا بالكاتب يخفى لأنه وجد إعراضا من صاحب الصحيفة لأنه لا يعجبه ما يكتب أو لا يعجبه أسلوبه .

ولو كان ذلك الكاتب تلقى من القراء ما يتلقى أمثاله في أميركا من رسائل اعلم صاحب الصحيفة أن صاحبه الذى لم يعجبه أسلوبه محبوب من الرأى العام فلم يجسر على إبعاده رغم أن أسلوبه لا يروقه، الرأى العام هناك سلطان يسير الصحافة والاذاعة ، أما هنا فالصحافة تسير الرأى العام وتنشر ما تحب على أنه الرأى العام والرأى العام براء منه فى بعض الأحيان .

أنت صاحب النفوذ الأعلى فى المجتمع لو أردت أن تخلق نفوذك لا من العدم لأنه موجود فعلا ولكن من الهوى التى يسبح فيها كما كانت ذرة الكهرباء تسبح قبل أن تتحد مع مثيلاتها وتكون تيار الكهرباء .

أكتب رأيك وأرسله لمن يعجبك فى كتابة رأى جديد أو فكرة جديدة واكتب للاذاعة ما ترى فيمن تسمع ، واكتب للصحف بما ترى فيما تقرأ ، وأدع أصدقاءك للكتابة مثلك تساهم فى انشاء الرأى العام فى مصر فلا يلىق بأمة فيها من المتعلمين ما فى مصر أن لا يكون فيها رأى عام .

ترى فى كل مجتمع خاص رأيا للجمعيين يتبادلونه يبدو فى مناقشاتهم فى القهوة وفى المنزل وفى الترام وفى المكتب ، ولكن الرأى العام مع ذلك غير موجود لأن هذه الآراء لا تتجمع فى الجهات التى يجب أن تدركها وتعلم بوجودها .

هذا نقص فى مصر لعلة أساس كل ما فيها مما يشكو منه ولو أراد الله وأردنا لقضينا بدقائق قليلة وملايم قليلة على هذا النقص قضاء لا نحسه بعده يوم يصبح الرأى العام قوة يحسب حسابها من تحدته نفسه بإيجاد شئ مما يشكو منه الناس لأن الرسائل التى تنصب على ذلك النقص كفيلة بأن ترعب ذلك الشخص لأنها تريه أن الرأى العام قد تحول عليه وهاجمه وعند ذلك يكون الرأى العام هو القوة التى يحسب حسابها فيكون من الشعب كالضمير الحساس من الانسان يصرفه عن كل ما لا يلىق .

ساهم فى تكوين الرأى العام تساهم فى ايجاد القوة التى تحمى كل نظام والتى تقضى على كل نقص واكتب من اليوم رأيك فى ما تحب وفيما تكره ولا تهمل رأيك فان أهملته فالناس أحق أن يهملوه .

عريان يوسف سعد